الثورة الجمعة 24 صفر 1432هـ الموافق 28 يناير 2011م (16879)

باكثير وكتابة السيرة الذاتية

(الحلقة الثانية)

(قراءة في شذرات سيرته الذاتية والفكرية)

منذ عقود استقطب أدب علي أحمد باكثير الباحثين الذين أخضعوه للدرس النقدي والمناهج المتعددة، فخرجت عشرات من الكتب القيمة، والرسائل الأكاديمية، والبحوث العلمية الرصينة، التي تناولت تجاربه الأدبية في المسرح والرواية والشعر، وتوقف بعضها عند جوانب بعينها من تراثه الأدبي الحافل بالتنوع، وعُقدت في الآونة الأخيرة سلسلة من المؤتمرات والندوات المحلية والدولية احتفاءً به، ما يدل على إعادة الاعتبار لهذه الشخصية الأدبية المهمَّشة، ومكانتها في الأدب العربي الحديث، وانطلاقاً من الوعي بأهمية خطاب الذات عند باكثير، وهو أحد الجوانب التي لم يتناولها دارسوه، يحاول هذا البحث أن يرتاد جانب السِّيرة الذاتية في قراءة الأديب الكبير علي أحمد باكثير، ذلك أن خطاب السِّيرة الذاتية أخذ في راهننا الأدبي والثقافي العربي يحتل موقعاً مهماً، وأخذت الدراسات الحديثة تبحث في نصيّة السِّيرة الذاتية وأوجه تشكلها، وهناك من المؤشرات ما يدل على زيادة الوعي بها، سواء أكان على مستوى الكتابة، مثل زيادة معدلات المنشور من السِّير الذاتية العربيّة التي أصبح يتشارك الشغف بها إلى جوار الأدباء والعلماء والمفكرين، السياسيون والفنانون والإعلاميون والإداريون، ورجال الأعمال، وآخرون أمثالهم،

د.عبدالحكيم محمد صالح باقيس

في إطار هذه الرؤية لانستبعد تأني باكثير أو تأخر استجابته في كتابة نص السيرة الذاتية الكاملة، أكان اعترافاً أم مكاشفة، وفقاً لمفهوم السيرة الذاتية المعيارية التي تركز على مراحل مختلفة من الحياة والتكوين والعلاقات الاجتماعية، فقد عُرف عنه خجله الشديد، وميله إلى الزهد في الحديث عن الذات، وهذا شعور مشترك بين كثير من الكتّاب، والقليل هم الذين تخلصوا من هذا الشعور فكتبوا سيرهم الذاتية. وآراء معاصريه تشير إلى محافظته الشديدة وحرصه الدائم على حجب تفاصيل حياته الخاصة عن الآخرين، على رغم ما تحفل به حياته من أحداث لاتقل درامية عن مسرحياته ورواياته، فقد «كان من الممكن لباكثير أن يثير حول نفسه ضجة بإنتاجه الذي صحبه معه إلى مصر من حضرموت وعدن والحجاز، وكان من الممكن أن يتحدث عن نفسه لسنوات، فقد جاء مصر وحياته مليئة بالتجارب والأحداث . على حداثة سنّه . إذ خاض معارك فكرية في حضرموت، وشهد خلافات قومه فيَ إندونيسيا، واتصل في شرق أفريقيا وعدن والحجاز بشخصيات كان لها دورها في صنع التاريخ السياسي للمنطقة فيما بعد، بل كان من المتيسر له أن يقيم الدنيا ويقعدها بقصة حبه، ومأساة زواجه بموت زوجه الحضرمية الشابة، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا كله، فلم يكتب عن نفسه ولا عن مأساة زوجه إلا في مسرحيته الأولى (همام أو في بلاد الأحقاف) التي كتبها في الطائف أثناء وجوده في الحجاز»، وللتدليل على زهده وتواضعه في الحديث عن الذات يمكن الاكتفاء بنموذجين لرأيي علمين بارزين من وسطين مختلفين ينتمي إليهما باكثير، الأول: هو الوسط الأدبي الذي يمثله يحيى حقي، والثاني: هو الوسط الفني المسرحي الذي يمثله يحيى العلمي، وهما يشيران إلى إجماع الوسطين في رسم شخصية باكثير التي تميل إلى الصمت والتأمل أكثر من الكلام، يقول الأديب المصري الكبير يحيى حقي في مقاله عن باكثير (رجل طيب) المنشور في صحيفة التعاون ١٩٦٩/١١/١٦م: «كان برهان طبعه تدخين الفلّيون فهو يعينه على إطباق الفم، وعلى الصبر والعكوف على النفس والاستغراق في عالمه الخاص.. كان يحب السكون لا اللهوجة، والتؤدة لا التسرع، والصوت الخفيض لا الجهير، تواضعه الجم يخفي أنفة شديدة، وعزة نفس مصونة من الانحناء، ومن الدنايا»، ويقول المخرج المسرحي الكبير يحيى العلمي، في مقاله (أين باكثير) المنشور بمجلة المسرح، في يوليو ١٩٦٦م: «.. أستطيع . وذلك ما اقتنعت به نفسي . أن أقدم إلى القارئ كاتباً معروفاً لديه، لكنه شحيح في طلب الأضواء، زاهد في السعي إليها».

وهذه صفات أجمع عليها معاصروه، وخَلَصَ إليها من جاؤوا بعدهم مقتفين ومنقبين عن آثاره وتفاصيل حياته، مثل محمد أبوبكر حميد، الذي يقول: «كان من أقل أدباء عصره حديثاً عن نفسه، وأكثرهم زهداً في الأضواء، فقد كان يؤمن بأن كثرة حديث الأديب عن ذاته تشغل الناس عن مؤلفاته، وأن أفضل ما يقوله الأديب، هو ذلك الذي يقوله للناس من خلال إبداعه»، لكن زهده الشديد في الحديث عن نفسه أضاع فرصة كتابة سِيرة ذاتية مهمة، لاسيما أن وعيه بأهمية هذا الجنس لم يكن غائباً، فقد رأيناه في النصف الثاني من خمسينيات القرن الماضي يكتب تقديماً مطولاً بعنوان (ذكريات صديق) للسيرة الذاتية التي كتبها صديقه الأديب السعودي حسن كتبي (هذه حياتي)، تحدث باكثير في التقديم عن الذكريات التي جمعتهما خلال وجودهما بالطائف، ومعلوم ما يربط الاثنين من الصداقة القديمة العميقة منذ الثلاثينيات، وكان ثمرته مسرحية باكثير الشعرية الأولى (همام أو في بلاد الأحقاف) التي كتبها كما ذكر في أكثر من مناسبة بتشجيع من حسن كتبي.

أما الذي وصل إلينا من خطاب الذات عند باكثير فمجموعة قليلة من المقابلات الصُحُفية القصيرة التي وافق على إجرائها في العشر سنوات الأخيرة من حياته، بعد أن ظل ممتنعاً عنها قبل ذلك، وبحسب محمد أبوبكر حميد الذي جمع هذه المقابلات في كتاب، فلم يعثر قبل ذلك على أية مقابلات على الرغم من مكانة باكثير وشهرته، وهو أمر يثير الغرابة بحكم شهرة باكثير ومكانته الأدبية، أما هذه المقابلات الصُحُفية فجاءت . بحسب حميد . بسبب الحصار الذي وجد أنه قد فرض عليه وعلى أعماله من قبل بعض المؤسسات الثقافية في الستينيات، ولذا «وجد أديبنا أنه لامناص له من الظهور في وسائل الإعلام، ولم يمانع في استقبال الصُحُفيين، والاستجابة لدعوات الإذاعة والتلفزيون، ففتح قلبه وتحدث عن كفاحه الفني، وعن حياته الشخصية وعصاميته، وعن المشكلات التي مرّ بها»، فأضاء في هذه المقابلات جوانب مهمة من سيرته الذاتية في مرحلة التنشئة والتكوين في حضرموت. أما مذكراته ويومياته التي لم يَقدم على نشرهما في حياته، فالذي خرج إلينا منهما بعد موته قَدْرٌ يسيرٌ منها لايكاد يبل فم الصادي، وتشير إلى أنها تتضمن وصف رحلاته خارج البلاد العربية، وتبدو أقرب إلى أدب الرحلات منها إلى المذكرات. أما النص الوحيد المكتمل الذي نشره في حياته، فهو كتابه (فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية)، وجلّ خطابه الذاتي في هذه النصوص يندرج في إطار الحديث عن تجاربه الإبداعية في الشعر والمسرح والرواية، ولم يتعرض لجوانب حياته الأخرى، أو لحيوات الآخرين الذين اتصل بهم، خلال مراحل سني عمره في اليمن والحجاز ومصر، حتى أولئك الذين حاربوه وتجنوا عليه، وكأنما تطل من خلال ذلك شخصية باكثير وطبيعته المسالة الصامتة، وقد ظلت ظروف طفولته ونشأته وأسرته بعيدة عن الإضاءة، وهما أخصب عناصر خطاب الذات عند كتاب السير الذاتية، وظل باكثير مكتفياً منها بتكرار جزء محدود منها كقصة زواجه والأزمة النفسية التي أعقبت وفاة زوجه الحضرمية وخروجه من اليمن، وهو قدر ضئيل للغاية لايتعدى ذكر ماهو بادٍ للجميع، أو رأس جبل الجليد، أما المسكوت عنه في سَيرته الذاتيةً . لاسيماً في مدة زواجه وخروجه من حضرموت . فلا شك في أنه كبير جداً. وهكذا ظلت حياته الاجتماعية محجوبة عدا بعض الشذرات البسيطة التي لاتسمن ولاتغني من جوع، وكأنه قد تعمّد حجب حياته الخاصة عن الناس، وألقى بأسرارها في صندوق وضاح، ذلك أن حياة باكثير، كما نعرفها من مختلف المصادر التي تناولتها، حياة حافلة بالتوترات والصراع والمجد، والسعادة والمرارة والألم، واتصاله بأهم شخصيات عصره في مصر كان مما يمكن أن يشكل مادة ثرية لكتابة السيرة الذاتية.

والناظر لخطاب الذات عند باكثير يجده لم يأتِ إلا في حدود ضيقة للغاية، وظل مرهوناً بتأثير المتلقي المحفز للبوح الذي يدفعه للحديث عن ذاته دفعاً، وهو متلق مباشر يطلب منه إضاءة جانب ما من سيرته الذاتية، كما جاء في مجموعة المقابلات الصُحُفية، حين يأتي الصُحُفي بسؤال ما عن حياته، فيدفعه للإجابة التي تأتي على نحو مقتضب، أو حين طلب منه مندوب معهد المسرح العربي بالقاهرة (إسحاق الحسيني) أن يلقي محاضرات على طلبة المعهد حول تجربته في كتابة المسرحية، فكان ثمرة المحاضرات جمع مادة مهمة عن تجربته المسرحية، أخرجها بعد ذلك في كتاب، وهذا يعني أن خطابه الذاتي هو في الأصل أحاديث شفاهية ألقيت على شكل إجابات أو محاضرات، ولذلك تتسم بما يتسم به الحديث الشفاهي من الإيجاز حيناً، والاسترسال حيناً أخرى، أو الانتقال العفوي بين الموضوعات، أما (مذكراته في حضرموت وعدن والحجاز من عام ١٩٢٥ إلى ١٩٣٣م)، و(يومياته في روسيا والجمهوريات الإسلامية وأوروبا في ١٩٥٨م)، التي يمكن أن تضيء جوانب كبيرة من حياة باكثير فهما حتى الآن حبيستا الغياب، ولم يُنشر من يومياته إلا جزءاً يسيراً في الموقع الذي يحمل اسمه على شبكة الإنترنت، وعلى الرغم من ذلك يجب أن نتعامل مع المنشور من مذكراته أو يومياته بتحفظ شديد، ذلك أن باكثير لم يقدم على نشرهما أو يعلن عن نية نشرهما، ما يجعلنا لا نطمئن تمام الاطمئنان إلى استقرار مادتهما عند باكثير، وربما كانتا ستشكلان المادة الأولية التي يمكن أن تصاغ منها سيرته الذاتية.

لكن زُهدَ باكثير في الحديث عن الذات لا يعني الاستنتاج بأنه يصدر عن موقف مضاد لكتابة السيرة الذاتية، بل على العكس من ذلك، فقد مارس من خطاب الذات ما يقربه من كتابة سيرته الذاتية، كالمذكرات، واليوميات، والحديث عن تجاربه الإبداعية، وسيرته الذاتية الفكرية المسرحية في كتابه (فن المسرح من خلال تجاربي الشخصية)، وغني عن البيان أنه قليل من الكتاب الذين كتبوا سيرهم الذاتية، أما الذين لم يكتبوا سيرهم الذاتية فلا يعني ذلك أنهم يصدرون عن موقف مضاد لها، وربما مارس بعضهم الكتابة الذاتية في أشكال قريبة من السيرة الذاتية، كالمذكرات واليوميات اللتين كانتا تؤديان وظيفة السيرة الذاتية، وظلتا إلى عهد قريب تنوبان عن مصطلح السيرة ذاتية، وقد ذكر تيتز روكي أن أول استخدام لمصطلح سيرة ذاتية على نحو صريح ومباشر جاء في تقديم سلامة موسى لكتاب سيرته الذاتية (تربية سلامة موسى)، ولذلك يمكن الزعم أن مادة المذكرات واليوميات التي أخذ في كتابتهما باكثير كان يمكنهما عند اكتمالهما ونشرهما من قبله تغطية بعض جوانب حياته، أما ما يحتمل أن يتم تأويله من أيديولوجيا مضادة للسيرة الذاتية عند باكثير، فلايخرج عن رؤية إسلامية تعليمية اعتقدها باكثير، وهي رؤية ترسم حدوداً معينة لخطاب الذات، وترى في تقديم تجربته الإبداعية والفكرية العنصر المحوري والجوهري، أما زعم أصحاب الأيديولوجيا المضادة للسيرة الذاتية أنها جنس أدبي غير تخييلي، يحيل إلى المرجعي أكثر من الخيالي، وأنها تتسم بالجمالية السطحية، فلن نجد له صدى عند باكثير، وواقع تجربته الأدبية سينفي أيّة فرضية لمثل هذا الزعم. ذلك أنه من أكثر الكتّاب الذين يستمدون متخيلهم من المرجعي، سواء أكان في مسرحياته أم في رواياته التي استقى مادتهما من أحداث وشخصيات ووقائع تاريخية معينة.

وخلاصة القول: إنه لم يصدر عن علي أحمد باكثير موقف مضاد لكتابة السيرة الذاتية، ولايمكن الزعم أن نظرته لأدب السيرة الذاتية جاءت أقل من نظرته لبقية الأجناس الأدبية التي مارس كتابتها، كالشعر والمسرحية والرواية، بل ربما نجد في هذه الأجناس نفسها أفضية لخطاب الذات عند علي أحمد باكثير، من ذلك نزعته التوثيقية في دراسة الحيوات المختلفة في جل أعماله، واحتفاؤه بالسير التاريخية في مسرحياته وروايات، وربما لايستبعد شعوره بالتماهي مع بعض شخصياته التاريخية، بل أن نماذج شخصياته الروائية أو المسرحية كانت في بعض الأحيان أقنعة مرر من خلالها خطابه الذاتي، كقصة الحب الصوفي في روايته الأولى (سلامة القس)، التي خاض لظاها القس عبدالرحمن بن أبي عمار، وافتتانه بمسرحية (روميو وجوليت) التي قال عن سرّ تخيّر ترجمتها الأستاذ المقالح: «لانستطيع فهم سر اختياره لقصةَ حب مأساوية لينكب على ترجمتها ويودع الترجمة قطعاً من مشاعره ومن نفسه، لانستطيع فهم سر ذلك الاخيار مالم نرجع إلى تاريخ حياته ونتبين أبعاد ما كان يعاني منه، وما حملته نفسه الجريحة من الآلام والشجون» . كما أن باكورة أعماله المسرحية (همام، أو في بلاد الأحقاف) يمكن أن يستشف منها أولى شواغل الفكرية في مرحلة حياته الحضرمية، يقول أندريه موروا: «إن إنتاجاً أدبياً ما، هو بالنسبة للمبدع، قبل كل شيء، لون من «التنفيس»، فالمبدع هو ذات تجمعت لديها خلال مسيرة حياتها مشاعر لم تستطع أن تجد وسيلة لتوظيفها في صورة عملية، وهذه المشاعر تلتف حول الروح وتضغط عليها حتى تجد وسيلة للانفجار، وعندما تمر بها لحظة الحاجة القوية للتحرر، ينبثق عنها العمل الأدبي». ويمكننا كذلك أن نلحظ في تراث باكثير الشعري أفضية شعرية قد تجاذبت خطاب الذات عنده، ويمكن النظر إليها بوصفها إنابة عن كتابة السيرة الذاتية، أو الافضاء ببعض هموم الذات عبر بوابة الشعر، فانطلاقته الأدبية الأولى كانت شعرية بدرجة أساسية، ومعلوم ما للشعر من دور في الإفضاء بالذات وانفعالاتها، وقد نُظر إليه منذ القدم بوصفه تعبيراً عن الذات وتجربة الحياة التي يمر بها الشاعر، ماَ جعله ينوب عن السيرة الذاتية أحياناً، ويبدو أشبه بمدونة لحياة الشاعر، ذلك «أن إدراك العربي الشاعر لمقوماته الشخصية في شعره جعله يرى في كتابة سيرته الذاتية أمراً قام به بالفعل، حيث يتيح له الشعر أداء وظيفة السيرة الذاتية»، والناظر لديوانيه الأولين (أزهار الرُبى في شعر الصبا) و(سحر عدن وفخر اليمن) سيقف على حضور أناه في قصائد اللوعة والألم، والحالة النفسية التي تركها موت زوجه، وسيقف على موضوعات تتصل بسيرته الذاتية في حضرموت وعدن، ومن أفضية الذات في المرحلة المبكرة من حياته كتاباته الصُحُفية الأولى في حضرموت، التي أدار من خلالها صراعه مع خصومه على مستوى الفكر، لاسيما ما تضمنته مقالاته الصُحُفية في (التهذيب) التي كانت تصدر بحضرموت في عشرينيات القرن الماضي.

المبحث الثاني
شذرات سيرة باكثير الذاتية

إن سيرة باكثير بمختلف محطاتها أضحت اليوم معروفة للجميع، بفضل الجهد النقدي الكبير الذي بذله الأوفياء لتراث باكثير وذكراه، وفي طليعتهم محمد أبوبكر حميد، وهو جهد متصل حتى اليوم، يستقطب أجيالاً جديدة من مريدي محراب هذا الأديب الكبير، يبحثون ويأولون مختلف أعماله ومراحل حياته، لكن سيرة باكثير الذاتية كما ترسمها الذات في خطابها، هي سيرة متشظية بين مجموعة من النصوص، ما يستدعي جمع شذراتها لتشكيل نص سيرته الذاتية الغائبة، فمعظم نصوص السيرة الذاتية المكتملة المعبرة عن حياة إنسان ما هي إلا مجموعة من الشذرات المتفرقة التي يتشكل منها في نهاية المطاف نص السيرة الذاتية، ولذلك يفترض هذا المبحث أن أحاديث باكثير الصُحُفية، ومذكراته، وكتابه (فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية) ستشكل المادة الأساس أو النواة في جمع شذرات سيرته الذاتية والفكرية الغائبة.

على الرغم من أن التجارب النقدية . بحسب صلاح فضل . «تشير دائماً إلى عدم كفاية التعريفات»، فإن الضرورة المنهجية تقتضي في هذا المبحث الانطلاق أولاً من تعريف السيرة الذاتية، وأكثر تعريفاتها انتشاراً بين الباحثين، هو تعريف مؤسس علمها، فيليب لوجون، الذي عَرّفها في كتابه العمدة (السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي) بأنها «حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة»، وهذا التعريف الذي حدد معطيات أساسية لميثاق السيرة الذاتية، من حيث طبيعة الحكي الاستعادي، واللغة النثرية، وتطابق السارد والمؤلف المدون اسمه على نص السيرة الذاتية، شكّل عتبة مهمة للولوج إلى مفهوم السيرة الذاتية في معظم الدراسات التي لم تخل من النقاش والتعليق والنقد، وقد شمل أهم العناصر الجوهرية التي يمكن الانطلاق منها أو البناء عليها في تحديد مفهوم السيرة الذاتية وميثاقها السردي، وقد ذكر لوجون نفسه في آخر كتابه أنه ليس لميثاق السيرة الذاتية الوظيفة نفسها دائما في كل النصوص، وأنه يجب الأخذ بالاعتبار سلسلة من العوامل منها شهرة صاحب السيرة الذاتية أو غياب الشهرة، والصيغ الجديدة التي ينتج بوساطتها نص السيرة الذاتية، لاسيما مع التطور الملفت للسيرة الذاتية الشفوية التي غيّرت شروط التواصل بين صاحب السيرة والمتلقي. والذي يهمنا من هذا التعريف الجامع أن التركيز على الحياة الفردية أو التاريخ الشخصي لا يعني بالضرورة إنتاج نص يغطي مراحل هذه الحياة كافة، ذلك أنه يمكن لكاتب السيرة الذاتية الاكتفاء بتناول جزئية معينة من حياته، أو مرحلة محددة منها، ولذلك أعادت بعض الدراسات صياغة تعريف السيرة الذاتية السابق على نحو أكثر شمولية، لتعيد تعريفها بأنها «حكي استعادي نثري بأشكال سردية متنوعة، يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص والعام، وذلك عندما يركز على حياته الفردية والجماعية وعلى تاريخه الجزئي أو الكلي»، واستيعاب الأشكال السردية المتنوعة، وتناول تاريخ الشخصية الجزئي يعني انفتاح مفهوم السيرة الذاتية على مجموعة من النصوص التي تتصدى لجزئية ما أو لجانب معيّن من الحياة، كالسيرة الذاتية في مدة الطفولة، أو التي تتناول بعض مراحل النضج، كالسير الذاتية الفكرية، أو السير الذاتية الشعرية، والسيرة الذاتية في المهنة أو الوظيفة مثل الإدارة أو السياسة، ونحو ذلك.

ومما لاشك فيه أن التطور التكنولوجي الذي شهدته وسائط الاتصال الحديثة مثل شبكة الإنترنت، والقنوات التلفزيونية الفضائية، والصحف والمجلات، قد أسهم جميعها بفعالية بالغة في بروز صيغ جديدة للسيرة الذاتية، التي لم تُعد مجرد السيرة المدونة في كتاب فحسب، يُقبل عليه المتلقي بوعي تام بخصائص جنس السيرة الذاتية، ما يشكل أفق انتظاره من نص السيرة الذاتية المدونة في كتاب، وإنما أخذت أشكال السيرة الذاتية تتسرب إلى وعي المتلقين عبر الوسائط الإعلامية والتقنية الحديثة، التي أصبحت تؤدي دوراً مهماً في إرساء أشكال جديدة للسيرة الذاتية، كالسير الذاتية الشفوية والمصورة، والبرامج التي تقدمها القنوات الفضائية التي تركز على جوانب جزئية أو كلية من السير الذاتية للمشاهير، كرجال السياسة، أو الأدباء أو الفنانين، وتسهم كذلك في خلق شروط جديد لعمليات تلقي السيرة الذاتية، وبهذا المعنى يمكننا البحث عن مجموعة الصيغ والأشكال التي تقربنا من التعرف إلى شذرات سيرة باكثير الذاتية.

لقد اختار علي أحمد باكثير أن يصف سيرته الذاتية في ثلاث مراحل، تبعاً لعلاقته بالأمكنة وما أحدثته في حياته من أثر مهم، وهي المراحل نفسها التي تعارف عليها دارسو حياته وتحولات تجربته الأدبية، الشعرية والمسرحية، وهي:

١-المرحلة التي يظهر فيها باكثير في حضرموت صبياً في سن التاسعة يطلب العلم في كنف أعمامه وموطن أجداه في البيئة المحلية الحضرمية، وتغيب تفاصيل حياته ومولده وطفولته قبل ذلك غياباً تماماً، عدا ولادته لأبوين عربيين من المهاجرين الحضارمة في إندونيسيا.

٢-لمرحلة التي يهاجر فيها باكثير متنقلاً بين مجموعة من الأمكنة، (عدن، وأنحاء اليمن، والحبشة والصومال، والحجاز) وقد أطلق عليها في بعض أحاديثه (الفترة الانتقالية) وتشكل مجموعة هذه الأمكنة عتبة التحول الجوهري في حياته بين حضرموت التي انطلق منها، ومصر التي استقر بها، والتي كان ينشد الرحال إليها منذ صباه.

٣-المرحلة التي تبدأ بوصوله إلى مصر، وهي المرحلة التي حقق فيها مجده الأدبي في مصر، واستقربها حتى وفاته في عام ١٩٦٩م. وإذا أعدنا تقسيم هذه المراحل تبعاً لمراحل السيرة الذاتية المعيارية، فيمكن وصفها بالآتي:

١-مرحلة الطفولة وما قبل الطفولة كما في بعض السير الذاتية، وهذه مرحلة غائبة في خطاب باكثير، محجوبة كل تفاصيلها، ويمكن أن نطلق عليها (المرحلة الإندونيسية).

٢-مرحلة التنشئة: وهي أكثر مراحل حياته إضاءة في شذرات سيرته الذاتية، وفي أحاديثه الصُحُفية بوجه خاص، وتبدأ بسن التاسعة وتنتهي بالعشرين، وهي تشمل (المرحلة الحضرمية).

٣-مرحلة النضج: وتشمل مرحلتي الأسفار ولانتقال بين مجموعة من الأمكنة والبلدان خارج حضرموت، ثم الاستقرار بمصر. ولايبدو من هذه المرحلة سوى منجزه الأدبي الذي تضمنته سيرته الذاتية الفكرية والمسرحية في كتابه (فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية)، ومذكراته التي تناولت رحلاته خارج البلاد العربية.

وهكذا يمكن الزعم بشيء من الاطمئنان أن شذرات سيرة علي أحمد باكثير الذاتية والفكرية شذرات متفرقة، تحملها ثلاثة نصوص أساسية، تتصل بجزئيات من حياته في المرحلتين الأخيرتين، أما مرحلة الطفولة، وقبل مَقدَمه إلى حضرموت فغائبة عن خطابه الذاتي غياباً تاماً، وهذه النصوص هي:

١-كتابه (فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية) وقد دون فيه باكثير السيرة الذاتية المسرحية والفكرية.

٢-أحاديث علي أحمد باكثير الصُحُفية، وقد اتجه فيها نحو الكلام عن منجزه الأدبي عامة، ومجموعة الظروف المحيطه به وما كان يعتري علاقاته في الوسط الثقافي، من تدهور وضمور في سني حياته الأخيرة، أو مرحلة (الحصار) بحسب التسمية التي أطلقها محمد أبوبكر حميد الذي دوّن سيرة باكثير الأدبية في مصر خلال المدة بين عامي ١٩٣٤ و١٩٦٩م، وجاءت مادة الأحاديث بحسب ما تقتضيه الأحاديث الصُحُفية، من تسليط الضوء على المناطق الإشكالية في تجربته الأدبية وعلاقاته.

٣-مذكرات علي أحمد باكثير، واتجه فيها . كما هو متاح من مادتها المنشورة . نحو الحديث عن رحلاته خارج البلاد العربية، واتصاله بالآخر المفارق لغةً وثقافة، وفي إطار زماني محدد بمدة أواخر الخمسينيات، ما يوحي بمادتها التي تقربها من أدب الرحلات.

وسنكتفي في هذا المبحث بتناول شذرات السيرة الذاتية في أحاديثه ومذكراته، أما كتابه (فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية) فسنفرد له المبحث القادم. لأنه من وجهة نظرنا يُشكّل سيرة علي أحمد باكثير الذاتية الفكرية والمسرحية، ما يستدعي التوقف عنده بشيء من التفصيل.

أولاً: الأحاديث:

بات من المعلوم أن السرد الشفوي هو أحد أشكال سرود السيرة الذاتية، وقد وَجَدَ الشكل الشفوي للسيرة الذاتية في السنوات الأخيرة بيئته الخصبة، بسبب التطور المذهل في عالم الاتصال والإعلام المرئي، كالقنوات التلفزيونية وغيرها من الوسائط، التي جعلت الحديث عن الذات ممارسة شفاهية تفاعلية بين صاحب السيرة الذاتية والمتلقين، ومثال ذلك ما يُبث ويذاع من برامج ومقابلات حوارية تلفزيونية وإذاعية تركز على الأدوار التي تؤديها الشخصيات المشهورة، كما أن السيرة الذاتية الشفوية مرحلة سابقة على كتابة السيرة الذاتية المدونة في بعض الأحيان، بسبب عدم مقدرة أصحاب السير الذاتية كتابتها بأنفسهم، إمّا لتقدم العمر أو المرض، ونحو ذلك، وإمّا بسبب عجز بعضهم عن امتلاك آليات وأدوات الكتابة فينتدبون من الأصفياء من يقوم بكتابتها نيابة عنهم، فما يمنح سيرة سلفادور دالي الذاتية (أنا والسوريالية) إلى جانب مادتها وطبيعتها السيرية، تلك اللغة النثرية العالية التي صاغ بها أندريه باونيود أمالي دالى عليه خلال عشرين عاماً، ولايمكن تجاوز الدور التوثيقي الذي تقوم به بعض المؤسسات على شكل حوارات ومقابلات صُحُفية تجري مع الشخصيات المشهورة والمؤثرة في مجالات الحياة العامة، وفي الأدب اليمني الحديث مثال على ذلك سيرة المناضل اليمني أحمد محمد نعمان الذاتية الشفوية التي تم توثيقها وتسجيلها على شكل حوار في أشرطة كاسيت ضمن برنامج مركز الدراسات العربية والشرق الأوسط التابع للجامعة الإمريكية ببيروت في أواخر الستينيات من القرن الماضي، واشترط نعمان عدم نشرها إلا بعد وفاته، ثم قام الكاتب اليمني علي محمد زيد في ٢٠٠٣م، على إخراجها بعد وفاة نعمان سيرة ذاتية مدونة في كتاب، وجاءت تحمل عنوان (مذكرات محمد أحمد نعمان: سيرة حياته الثقافية والسياسية)، وغني عن البيان أن مثل هذه الحوارات الشخصية هي أحد الأشكال السِّيرذاتية، ذلك أنه «يمكن أن تجمع سلسلة الحوارات للكاتب الواحد أو لعدة كتاب وتنشر بوصفها وثيقة مهمة، تقترب على نحو أو آخر من أشكال السيرة الذاتية»، وعلى هذا النحو يمكن النظر إلى أحاديث باكثير الصُحُفية التي تضمنت إجابات تتصل بحياته الأدبية والخاصة تحمل في بعضها صورة جنينية لتشكيل نص سيرة ذاتية شفوية، فيمكن جمع شذراتها المتفرقة بوصفها جزءاً مهماً من سيرته الذاتية والفكرية.

ونقصد بالأحاديث مجموعة المقابلات التي أجريت مع علي أحمد باكثير، في الصحف والمجلات، وفي الإذاعة والتلفزيون، في المدة ما بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦٩م، ومجموعها عشرة أحاديث، وهي التي جمعها الدكتور محمد أبوبكر حميد في كتاب، ومنحها عنوان (أحاديث علي أحمد باكثير من أحلام حضرموت إلى هموم القاهرة)، وهو عنوان لايخلو من الايحاء بالطابع السِّيَري للأحاديث، وتحديد الفضائين الزماني والمكاني لرحلة باكثير وتحولاتها في إطار هذين الفضائين. وكما ذكرنا من قبل، ففي هذه الأحاديث تغيب تفاصيل الحياة الاجتماعية والخاصة، فقد ركزت على جانب التكوين الفكري والثقافي، ويغلب عليها طابع الحديث الصُحُفي الذي يتحرى جوانب الحياة العلمية والإبداعية عند الشخصية العلم التي يجري معها الحوار، ولذا كان الاهتمام يتجه نحو المنجز الأدبي لا الحياة الخاصة لعلي أحمد باكثير، ورغم ذلك تتفلت في أثناء الحوار بعض الشذرات البسيطة عن حياته الخاصة، لاسيما ما اتصل بمرحلة وجوده في حضرموت، ويبدو باكثير فيها وكأنه قد صاغ نص سيرته الذاتية حاجباً فيها تفاصيل الحياة الخاصة، مكتفياً منها بما اتصل بالتنشئة التعليمية والتكوين، وقد أطلق على مرحلة وجوده في حضرموت (فترة التكوين والتعليم). ويبدو كذلك قد اختار بنية نصيّة ثابة تتكرر في كل أحاديثه، تأتي متضمنة عناصر بعينها، هي: سبب إرساله إلى حضرموت، وقصة تعليمه، وطبيعة التعليم الذي تلقاه في حضرموت، ووصفه للبيئة العلمية التقليدية في حضرموت، وقراءاته وموهبته، وبدايات تجربته الأدبية، وموت زوجه، وقصة خروجه من حضرموت، بحيث يمكن تقسيم نص سيرته الذاتية في حضرموت إلى ثلاث مجموعات نصيّة، وتتكون كل مجموعة من عدد من الشذرات، فالمجموعة الأولى تتناول التنشئة والتعليم، والثانية تتناول الموهبة وبدايات التجربة الأدبية، والثالثة تناول قصة خروجه من حضرموت، وسنختار نماذج للدلالة من كل مجموعة نصيّة على النحو الآتي:

(أ) التنشئة والتعليم:

١-.. على عادة الحضارمة بعثني والدي إلى حضرموت، وأنا في سن الثامنة، حيث كانت نشأتي الأولى وتعليمي حتى سن العشرين، وكانت الثقافة هناك عربية، ولم تكن تهتم بالعلوم العصرية، أما المعاهد فكانت عبارة عن شيوخ وعلماء يعقدون جلسات في المساجد أو الزوايا، يتردد عليهم الطلاب يدرسون بعض الكتب على أيديهم، وكنت أجد في مكتبة عمّي، وهو أحد هؤلاء العلماء ما يروي نهمي إلى القراءة، كنت أمضي بها الساعات الطوال ألتهم أي كتاب أجده في طريقي، خاصة الكتب الأدبية والدواوين الشعرية».

٢-.. أنا ابن تاجر أقمشة، بلده حضرموت، ومكان عمله في إندونيسيا .. وأكثر الحضرميين يعرفون الهجرة، أكثرهم يعملون في إندونيسيا والملايو، وكان أبي ينتقل ما بين بلد الموطن وبلد العمل، وكما تحتم الظروف على رجل طيب يقيم في بلدين، فقد كان للأب في إندونيسيا زوجة، وفي حضرموت زوجة أخرى!، وفي سن التاسعة، كعادة الحضرميين، عاد بي أبي إلى حضرموت، لأقضي فيها فترة تكويني وتعليمي.. وبدخلت المدرسة، مدرسة فيها من الأزهر ومن المدارس الدينية معاً، بل فيها من الأزهر أكثر، ثم بعد أربع سنوات في هذه المدرسة الفطرية أنضممت إلى مجلس العم. ومجلس العم هو حلقة من التلاميذ الناجحين يلتقي بهم عمي، ويلقي عليهم الدروس الدينية والأدبية، ويتناقشون.».

٣-.. أرسلني والدي من أندونيسيا إلى حضرموت، كعادة الحضارمة في ذلك الحين، فيرسلون أولادهم وهم صغار ليتربوا في حضرموت، وهناك تلقيت ثقافتي العربية الإسلامية الأولى، وبدأت أنظم الشعر، فالشعر كان بداية اتجاهي الأدبي، ونظمت كثيراً من الشعر على مختلف الأنواع، واطلعت على دواوين الشعراء الأقدمين والمحدثين أيضاً من أمثال شوقي وخليل مطران وحافظ إبراهيم، وكان حافظ إبراهيم أثير عندي كثيراً جداً.».

(ب) الموهبة وبدايات التجربة الأدبية:

«.. بدأت حياتي الأدبية في حضرموت بالشعر، وكنت أعد نفسي شاعراً فحسب، حتى النثر لا أكتبه إلا قليلاً في ذلك الحين، وفي تلك الأثناء راسلت بعض الصحف المصرية، فرثيت حافظ إبراهيم، وأرسلت قصيدتي في رثائه إلى جريدة الجهاد، ونشرتها بتعليق الأستاذ دياب، رحمه الله، كما رثيت شوقي أيضاً، وكتبت مقالة نقدية في مجلة المعرفة، التي كان يصدرها المرحوم الأستاذ عبدالعزيز الإسلامبولي».

«.. أنا قلت الشعر وأنا في الثالثة عشرة يعني (صبي صغير) وكانت عند عمي مكتبة كبيرة جداً فيها جميع الشعراء القدامى، وبعض الشعراء المحدثين، فاطلعت على هذه الدواوين جميعاً، ثم اتصلت بالأدباء المحدثين مثل شوقي وحافظ ومطران، بأن أرسلت بطلب دواوينهم من مصر وإلى الآن لا أزال أذكر يوم مجيئ ديوان حافظ إبراهيم الذي اعتبرته يوم عيد وأولت وليمة كبيرة، وحضر أصدقائي من الأدباء والشعراء، احتفالاً بهذا اليوم، يوم ورود ديوان حافظ إلي في حضرموت. والواقع أنني نظرت إلى الشعر نظرة جدية أكثر من أصدقائي وأخواني هناك في حضرموت. وكنت أريد أن أكون شاعراً كبيراً، وكنت أمنّي نفسي أن آتي إلى مصر يوماً من الأيام لأتزوّد بالأدب الأجنبي، فقد سمعت وقرأت طبعاً الدراسات المترجمة مثل الفصول للعقاد وغيره أن عند الأفرنج أدباً كبيراً عظيماً، وأن الأدب لايقتصر على الأدب العربي فقط، وأننا نعيش في القرن العشرين ولايروينا الأدب العربي وحده لمن يريد أن يكون شاعراً بحق أو كاتباً بحق، أو شيء من هذا القبيل..».

(ج) قصة ح